

## LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

### سلطان اللفظ<sup>(١)</sup>

#### ٤ - المزاheb المتفرة

والواقع أنه طبيعى جداً أن يحتل المشعوذون الميادين العامة ؛ فهي خير الأماكن التى يعرضون فيها أعمالهم البطولية . فلا يحتّم فيها أن يتسع التفكير نهجاً منتظماً ، وليس المهم فيها أن يلتزم الانسان الدقة فى تعبيره ، بل المهم أن يكون له حظ كبير من التهويل . فكلّ يعرف أن التأثير فى الجماهير لا يكون عن طريق المنطق ، بل خير من ذلك الضجيج والمجيج وترديد صيحات معينة عالية ، حتى ينتهى الأمر بهذا الترديد إلى أن يحدث بطريقة آلية الانفعالات التى يتوقعها رجل ماهر أو رجل معتوه يخضع هو نفسه للهذيان الذى ينشره . نعم إن العلماء والفلاسفة يدعون أنهم فى ذلك أشدّ تحرجاً . ولكن كلاً من المفكر والمهرّج يستعير من اللغة أسراكها . فكلاهما يتملق حاجة مختلفة ، أحدهما يصف تأثير عقاقيره أو سياسته فى شكل مغر خلاب . والآخر يعرض مذهباً . نعم أنه ينطوى على حل لكل مشكلة وعلى تفسير لأحداث العالم جميعاً . وحسب هذا أن يستهوى معظم الناس . ولاخطباء أن يختاروا ما يعنّ لهم من الوسائل ، فهي كثيرة . فريق منهم يفسّر كل شئ بالصراع بين الطبقات ويتطور الأحوال الاقتصادية . وفريق ثان يفسّره بالتنافس بين الأجناس ، وبجهود أقلها موهبة للتغلب على الأجناس الممتازة الخليقة بالسيطرة العالمية . على حين يردّ فريق ثالث جميع الأمور إلى النشاط الجنسى الذى يبدو تأثيره القوى فى كل شئ . وكان قوم من قبل يفسرون الأحداث بظواهر النجوم ، يسلكون نفس الطريق

(١) اسكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦) .

ويعصبون نفس النجاح . فأساس المبدأ واحد ، والوسيلة لا يمكن أن تخفق وهي تطبق في كثير من الثقة والاطمئنان . ويكفي وجود أداة مرنة لكي توصف الأشياء بألوان متناقضة في آن واحد ، فتعرض على أنها بيضاء وعلى أنها سوداء في الوقت نفسه ، وسرعان ما تنجح الحيلة . ويسيرُ جداً أن نلحق أية نتيجة بالسبب الذي نكون اخترناه . فيكفي أن يكون هذا السبب بعض العموم والإبهام . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نظهر أثره بالالتجاء إلى بعض الالفاظ الرئيسية الزانة التي يقدر أنها تشع الضوء من نفسها . فبعضهم يذكر « المنطق » أو « ارتفاع القيمة » ، وبعضهم الآخر يذكر « الاندفاع » أو « العقدة النفسية » أو « التمجيد » ، وفريق ثالث يذكر « طول الجمجمة » . فإذا كل شيء قد استضاء . فثلاً يرى أحدهم أن في لوحات مصوّر نوح إلى تاهيتي تعبيراً عن روح التوسع الاستعماري الفرنسي . ويفسر ثابن الاتجاه الرأسمالي في الاقتصاد بتأثير الميول نحو نوع من الشهوات الجنسية الآثمة ، ويقرر في جد أن هذه الميول قد انقلبت من الأفراد إلى الجماعة ، على حين يستكشف ثالث أن في مذبحه سان بارتيليمي أو في الثورة الفرنسية تأمراً من الأجناس الدنيا ضد الأجناس الآرية المصطفاة . وفي كل مرة يكفي الالتجاء إلى لفظ معين ، فإليه وحده يستند ما للتفسير من حظوة واعتبار . وهذا اللفظ يتحدى اللفظ ويعضله ؛ لأنه لا يمكن مناقشة مثل هذه التأكيدات الجازمة القائمة على غير أساس لها . فلم تنشأ إلا من استعمال آلي للفظ عام يصلح استعماله لجميع الحالات الواقعية أو التي يمكن تصورها . والأسباب التي يمتنع لأجلها إثبات أن هذه التأكيدات صحيحة هي نفسها التي تقف في إثبات أنها باطلة . وطابعها التعمني ذاته يحميها ويجعلها غير قابلة للتنفيذ . فليس في وسع أحد أن يثبت أن رسم جوجان ليس حتماً تصويراً للتوسع الاستعماري ، أو أن الاقتصاد الرأسمالي مستقل عن الميول الجنسية الآثمة ، أو أن لعبة الشطرنج ليست تمجيداً لعقدة « أديب » ( فمن الواضح أن الملك الذي يجب قهره في احترام ودون إزالته رمز للأب ) . كما أنه ليس من دليل حاسم يمكن الاستناد إليه لاستبعاد الفرض الذي يقضى بأن الاستيلاء على سجن الباستيل مرجعه مؤامرة دبرها رجال سمر اللون ليقاوموا بها سيطرة الشقير ، أو مرجعه اقتران كوكب نبتون بأورانوس في برج ساجيتير . وعسير أن نلغي أية علاقة تصل بين مبدأ عام وحدث خاص . ولنفرض أنه أمكن

تحقيق ذلك عن طريق معجزة ، أو على الأقل بشكل غير مباشر اى بإيضاح صلات أدق وأوثق بين الأشياء ، ففى هذه الحالة نفسها لن يوافق هؤلاء العلماء على أن فى هذا انهزاماً لهم . فسيتهمون خصومهم بأنهم ضحية مظاهر خدعتهم ، وأنهم يقفون عند الأشكال الخارجية للأشياء ، على حين أنهم إذا تعمقوا فحصها وحللوها تحليلًا دقيقاً فسيستكشفون أن الدوافع التى بينوها هى التى أدت إلى وجود كل شئ . ولا يمكن بحال أن يتعرضوا للخطأ .

وبطبيعة الحال تطفى بعض تعليقاتهم على بعض . ولا ينتهون من التنازع فيما بينهم ، بل أكثر من ذلك فهم يحاولون أن يقهر بعضهم بعضاً فى نظرياتهم المختلفة ، فيفسر كل منهم تسلسل الأسباب التى أدت إلى إيجاد المذهب الذى يناهضه . وينجح فى ذلك دون عسر بفضل حديثه السحرى وحده ، هذا الحديث الذى يعتبره الآخر بحق جدلاً لفظياً أجوف ، ولكن دون أن يتبين أن حديثه نفسه فى هذا الموضوع لا يفضل فى شئ الحديث الذى ينقضه . وكثيراً ما سمعت هؤلاء العلماء يجرّم بعضهم بعضاً . لا يقدمون على ذلك بعد مناقشة حجج الخصم ، بل يسرعون إلى إدراج هذا الخصم بين الذين يستفكرهم مذهبهم الخاص . فالبيسيكولوجى يدرجه بين هؤلاء التعماء الذين يسميهم المكبوتين ، ورجل الاقتصاد يدرجه بين أولئك الذين ينعتهم بالبورجوازيين الذين لا تقوم حججهم إلا على أساس من مصالحهم الخاصة ، ودارس الأجناس البشرية يدرج المتمرد بين الطبقات الدنيا ذات الذهن الهدام ( كما يعلم ذلك كل إنسان ) ، والمنجم مقتنع أنه حين يقرأ طالع الرجل البائس سيستكشف أنه ولد فى ظل نجم سيء ذى أثر خبيث يمنعه حتى من أن يعترف بما للتنجيم من أساس قوى ودعامة وطيدة .

لذلك فسرعان ما يبيت فى الموضوع بطريقة حاسمة ؛ لأن مدار الأمر ليس هو مناقشة الآراء والنظريات ، وإنما هو استخلاص الحكم على هذه الآراء والنظريات من أشخاص أصحابها . فلا يضطرب صاحب النظرية بسبب مثل هذا الحادث التافه الحقيقى الذى كان فضلاً عن ذلك متوقفاً ، والذي يدخل على كل حال فى النظام العام للعالم على الصورة التى يصفها المذهب الذى يقدسه . فيمر به دون أن يلوى عليه ، ويواصل فى يسر تأويل أحداث العالم على المنوال الذى يراه مذهبه . ألم أقل لك إنه معصوم من الخطأ ، وإنه ثابت الجنان لا يترعج .

ولست أعرف شيئاً أشد احتقاراً للواقع من مثل هذه السيرة . إن تلجأ إليها العقيدة الدينية ، فلا غبار على ذلك ، فهي تقوم في هذا بمهمتها . وأفهم حق الفهم أن رجل الدين يستند على الحقائق التي تزل بها الوحي فلا يتكلف إدحاض منطق الملحدين ، فهذا المنطق جاءهم من الشيطان . ورجل الدين يترك أمر الإقناع إلى النعمة التي يمنحها الله ، أو إلى النار التي يحرق فيها الملحدون . أما أن يحذو محترف التفكير هذا الحذو ، وفي غير وعي ، فهذا ما يزعجني ويقلقني . فلا بد من أن يكون للألفاظ متى أطلقت سلطان غير محدود في ألا تعنى شيئاً واضحاً معيناً . وإذا قصرت هذه الألفاظ على وظائفها باعتبارها علامات تحكيمية ، وإذا جمع بعضها إلى بعض ولم يجمع بينها وبين الأشياء ، فسرعان ما تقوى ويشد بعضها أزر بعض ، وتنفي ماعداها ، فتكون مذهباً منظماً لاسبيل إلى قهره مهما يكن تافهاً . نعم تصبح ذات بأس ، وكأنه بأس لا حد له . فهي تمحو العالم ، ولا يقف في سبيلها شيء ، لا المعلومات البدئية التي تلمسها الحواس ، ولا العلاقات الحتمية التي يوجدتها العقل بين الأفكار ، ولا الحقائق المؤكدة الأدق التي يشعر القلب أنها أشد ثباتاً وأقرب إليه من سواها جميعاً . وكأن العالم كله قد غشيته ظلمة وأقصى إلى مرتبة ثانوية مهمة غامضة بسبب هذا الستار المضطرب المرن الذي تسدله الألفاظ حين تمتحن تأليفها في تركيب عظيم شامل . وليس ينقضي عجب من اتساع الخدعة ، وهي مستمرة عامة تشمل كل شيء ، لذلك لا تلحظ بسهولة . وهي تنجح في أن تغرّ أشد الأذهان خدفاً وأن تجنذب لنفسها حتى المقدرة في التعبير عن الآراء في دقة ، فتخدر بذلك يقظة الأفكار الحذرة لطبيعتها . وأخطارها أشد حين تصوب نحو أذهان أقل سموً ، حين تتجه على العكس من ذلك إلى قوات فظة سريعة الالتهاب ، لا يقيها من الضلال شيء ، تهاج إذ يلوّح لها بحرقه من القماش الأحمر وتهاد في مثل هذا اليسر . وتنشأ أضرار جمة من مثل هذا الاضطراب الذي قد يستتبع آثاراً بالغة في السوء . ولو اني اندفعت إلى تعدادها لوقعت في الخطأ الذي أنقده . على أني أتمس معذرة في أن أعرض عبارة ذكرها كونفوشيوس ، وقد صادفتها في بحث قصد به أيضاً توجيه النقد إلى إساءة استعمال لفظ معين وهو لفظ « متصوف » فقد سئل كونفوشيوس عما يوصى به الأمير لنج دي في من إجراء يتخذه لاستعادة السلم ورفع مستوى الخلق في مملكته حيث بلغت الفوضى أقصاها .

أجاب كوتفوسوس : « وضع الالفاظ موضعها . » ثم شرح فكرته قائلاً :  
« حين لا توضع الالفاظ في موضعها تضطرب الأذهان ، وحين تضطرب الأذهان  
تفسد المعاملات ، وحين تفسد المعاملات لا تدرس الموسيقى ولا تؤدى الشعائر  
الدينية ، وحين لا تدرس الموسيقى ولا تؤدى الشعائر الدينية تفسد النسبة بين  
العقوبة والإثم ، وحين تفسد النسبة بين العقوبة والإثم لا يدري الشعب على أى  
قدميه يرقص ولا ماذا يعمل بأصابعه العشر . » ولست أدري أكان مثل هذا  
الدوران ضروريا ، ولكننى أرى فى هذه الحكمة كثيراً من الصدق والعمق .

## ٥ - الخطر المحدق بالحرية

حين تفقد اللغة وضوحها وتستعمل بعض الالفاظ محل بعضها الآخر ، فما  
المقياس العام الذى يتيح للناس أبسط أوجه التبادل التى لا يشوبها سوء التفاهم ؟  
وحين يتعدى كل واحد اختصاصه باستعمال حديث خلاب ، ولكنه حديث يخلو  
من الدقة ومن المغزى ، فلا يمكن التمييز بين الحكيم من القول وسفيهه ، أو بين  
الغث والسمين ، ولا يمكن أن ينقل أى تعليم أو أن يفسر . وكأن الأمر متعلق  
ببابل حديثة لا تخرج منها فجاءة لغات مخلقة ، بل حتى حين تستعمل لغة  
واحدة فلا بد للتفاهم من الالتجاء دائماً إلى الترجمة ، والترجمة مستحيلة لأنه  
لا توجد علاقة وثيقة أكيدة بين ألفاظ مضطربة غامضة لا توحى بنفس الصور  
إلى الأشخاص المختلفين .

لا تبقى بعد ذلك إلا علامات لا ينتظر منها إلا أن يكون لها آثار الطلاس ،  
وهى على أى حال إشارات أكثر منها بيانات موضحة . ويفوز ذلك الذى يعرف  
كيف يستعمل أغلظ الوسائل لاستغلال هذه الالفاظ ، لا باعتبار ما تعنيه بل  
باعتبارها طعماً مغرياً ، من شأنها أن تلهب الشهوات وتثير ما يمكن أن يوجد  
أكبر كمٍّ من النشاط النافع لغرض معين ، وفى أقل زمن ممكن ، وتتولى فى  
معامل الإيمان إخصائيون مجدون صياغة أشد الوسائل تأثيراً ، ويضعون التراكيب  
والأوصاف التى ينبغى استعمالها للحصول على هذا الانفعال أو ذاك فى ثقة  
وتأكيد . وفى مثل هذه الأحوال من ذا الذى لا يوافق على أن ألفاظاً تختار فى  
مهارة ، وتردد ترديداً عاماً ، وتقرن باستمرار بمشاعر معينة ، لا تصل فى جميع

الأحوال تقريباً إلى أن تحدث الانفعالات التي يراد إحداثها وليس ما يدعو إلى العنف للإمعان في الترويض وحذقه ؛ فالعلم وحده كفيل بذلك . ويخيل لكل واحد أنه مندفع اندفاعاً طبيعياً ومن تلقاء نفسه ، على حين يدفعه غيره في هذا الطريق الذي مهد له في حساب ماهر حاذق . هذا هو السبيل الذي يسلكه الإنسان . وإن لم يحتط لنفسه فسرعان ما يخضع خضوعاً مطلقاً للانفعالات المنظمة . واستقلال الرجل المفكر آخر الأمر لا سبيل إليه إلا إذا اتمع حكم عقله . أما الالفاظ فينبغي أن ينفذ خلالها فيصل إلى الواقع ليطبق حكمه عليه . وحيثه تكون عندئذ في القرار الذي يتخذه بعد الإلمام بجميع الظروف . ولكنه إذا قصر اهتمامه على الالفاظ وحدها ، فأهمل الرجوع إلى مجاربه الشخصية ليحقق ما يعنيه هذه الالفاظ ، فالويل له ، لقد هلك ! وهناك تستعمل الالفاظ لملء على عمل ما يراد منه ، فيدفع إلى العبودية دون خشية من أن يحس ذلك . وفي وسع الطاغية الخبير المالك لأدوات الطفيان أن يملأه كما تملأ الساعة ، وأن يضبطه كما يروق له . والدعاية ما زال فناً في مهده ، ولكنها ظفرت من النتائج بقدر يجعلنا نشك في أن الدولة ستعدل عن استعمال مثل هذه الوسيلة الناجحة الفعالة لتحصل من الناس على الطاعة ، بل على الحماسة ، وستعدل عن حرمان الفرد حريته بحجبه محتقرة مثل هذه الوسائل ، إذا استطاعت أن تنظم شهواته .

وهذا التصور القائم ليس وهمياً ، فإنه يصف حاله لا خيال فيها ، وفي وسع كل فرد ملاحظها إذا ما استطاع أن ينظر بعينه . فالقياس إلى كثير من الناس توجد هوة يزداد الساعها بين تجربة غير كافية وبين مجموعة من الالفاظ تفوقها بكثير لا من حيث الانساع فقط ، بل من حيث التعقد . وحين يكون الأمر متعلقاً بالالفاظ التي تدل على أشياء تقع تحت الحواس أو على حالات نفسية أولية بسيطة ، فليس ما يدعو بعد إلى الانزعاج . ولكن حين تجمع الالفاظ يبدأ الاتهام ؛ لأن بعض الفروق تمحي ويظهر المسبل إلى المطابقة بين أشياء لا يمكن أن تكون مطابقة إلا من نواح معينة وقد لفت إلى ذلك كاتب شديد الحساسية إذ قال : « كيف يمكن أن يقال « الأطفال » ؟ فإن لفظ طفل لا يمكن أن يجمع ، وإنما هو مفرد له مفهوم لا يمحصر . » . وكذلك الأمر حين

يجمع لفظ « الرجل » . فليس من الممكن أن نتحدث عن الرجال حديثاً دقيقاً صادقاً إلا إذا اقتصرنا على ما يمتاز به نوعهم ، واستبعدنا ما يتفاوت فيه الأفراد . ومن ذا الذي يأخذ نفسه بمثل هذه الدقة !

وأقل لفظ من الألفاظ المجردة أشد خطراً من ذلك ؛ إذ يفترض عمليات شاقة لا ينبغي القيام بها في خفة . واللفظ في براءته الظاهرة ينقلها جاهزة إلى أذهان لا تتصور كنهها بأي حال من الأحوال . فهي تستخدم هذه الإشارة في سذاجة تامة دون أن تتنبه إلى ما في ذلك من خطر إذا لم تبدأ بتحديد معناها وباستعادة العملية الذهنية التي يدين هذا اللفظ لها بوجوده . وبهذا الشرط وحده يمكن اقتناء اللفظ ، وإلا فانه لا يزيد على كونه مستعاراً . وهذه هي مع الأسف حال أغلب الألفاظ بالقياس إلى معظم الناس . لم يزدوا على أن سمعوها أو قرأوها فرددوها على الشكل الذي يبدو لهم أقرب إلى التصديق والاحتمال . ومثل هذه الألفاظ لا تشتمل على زيادة في التعليم والتحصيل ، بل تعتبر على العكس من ذلك خطراً داهماً . فهذه الحال تجعل الإنسان أعزل وتفسد حكمه ، وتجعل من هذا المخلوق المضطرب فريسة سهلة يستغلها الداعية مهرجاً كان أو ماهراً . ولست أنكر أن أحدهما يحاول التغير ، وأن الآخر يريد به الخير فيما يقال . ولكن الواقع أن كلا منهما ينزله إلى مرتبة الدمية التي يحركها كيف يشاء .

وقد يشق على الناس أن يقبلوا أن هذا المصير محتوم على الإنسان . وقد يشق عليهم أيضاً أن يجدوا خير الوسائل التي تعينه على التحرر من هذا الرق الخبيث . ولكني لا أشك في أن من الخير له أن تزيد مقدرته على الحكم على الأشياء حكماً سليماً ؛ فهذا يحفظ عليه حريته الشخصية كاملة . فإني لا أسأم ترديد القول إنه لافائدة له في الحرية التي تترك له في ظاهر الأمر إذا عرفت الوسيلة التي تسخر بها إرادته . لذلك أرجو أن يُعتاد الاحتراس من الألفاظ ؛ فعن طريق الألفاظ يمكن الوصول في يسر إلى مفاجآت وإخضاعه .

بل أرجو ، ولكني أخشى أن أرجو المستحيل ، أن يفحصها جميعاً خفصاً دقيقاً فيستبعد تلك التي تلقاها على سبيل المصادفة والتي يعجز عن أن يطابق بينها وبين حقيقة من الحقائق الواقعة . ليلغها إذا ما اضطر وهو يفحصها إلى الاعتراف بأنه مجهل ماتدل عليه وما تشير إليه . وفي هذا مطاردة للأشباح ممائلة

لتلك التي كان يوصى بها القاص". هناك نرى كثيراً من الألفاظ والعبارات والتراكيب الجوفاء تنحلّ وتزول. وربما تركت هي أيضاً في الذاكرة بقعة من العفن كتلك التي تتركها على الجدران الحشرات التي تخيلها، تلك الحشرات التي لم يعد لها حق في الوجود، فلم تكن تستطيع الظهور إلا وسط الجماهير بفضل غفلة عامة، ولكنها تضطر إلى الزوال حين تطارد ويتبين أنها غير ذات غناء. ولا إخال هذه المطاردة تروق الكثيرين، أو أنهم يقدرّون عليها. ولا شك أن الحديث يستمتع، ثمناً لا سبيل إلى تجنبه، هذا العدد العظيم من الألفاظ الهائلة الجوفاء. وطبيعي أن يلتقطها كل واحد فيسعملها دون كثير من التقيد كما يعنّ له. ولكن بعض الناس يبذلون جهدهم في أن يكون استعمالهم لهذه الملكة الثمينة في الحديث على خير الوجوه وأكملها، بل يفخرون بذلك. وأظن أن عليهم أن يكونوا قدوة لغيرهم، وأن أبسط الأمانة تقضى عليهم ألا يسئوا استعمال السلطة الخطيرة الموكولة إليهم. وهم بلا شك لا يتعرضون لعقاب لو أنهم خانوا الأمانة؛ بل قد يجدون في ذلك مزايا مختلفة، أولها تصفيق أولئك الذين يخذعونهم. ولكنهم بذلك يقصرون في القيام بالواجب الذي تفرضه عليهم مكاتبتهم.

ويروى أن الصينيين لم يكونوا يملكون في سالف الزمان للتعبير عما يريدون الا قطعاً صغيرة من المحيط يحدّثون فيها عقداً معينة على أوضاع خاصة وفي أوقات متراوحة مناسبة. وكان موضع العقدة وشكلها يبينان في عسر عما يريدون التعبير عنه. ثم اخترعت الكتابة. وظهرت مجموعات ضخمة من الكتب لم تراع فيها الدقة في أداء الفكر. فلم يكن هناك ما يدعو إلى التفكير كثيراً للتعبير قليلاً. بل كان الأمر على العكس من ذلك في معظم الأحوال. وقد قلق أحد الحكماء من هذه الحال وصاح بهم قائلاً: «سأردكم إلى التعبير بعقد الخيط». وطبيعي أن هذه الصيحة لم تكن إلا مجرد رغبة لا يمكن تحقيقها. على أن هذا الحكيم كان مع ذلك يوصي أتباعه بالتفكير الصامت. والصينيون يكرّمون ذكراه لأنهم يرونه أكبر الحكماء.

روميّة

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته